170 - ـ فصل : نية المؤمن ابلغ من عمله .

و ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته فإن من علت همته يختار المعالي .

و ربما لا يساعده الزمان وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب .

و إني أعطيت من علو الهمة طرفا فأنا به في عذاب و لا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل و العاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل .

و لقد رأيت أقواما يصفون علو هممهم فتأملتها بها في فن واحد و لا يبالون بالنقص فيما هو اهم قال الرضي : .

(و لكل جسم في ... النحول بلية و بلاء جسمي من تفاوت همتي) .

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة .

و كان ابو مسلم الخرساني في حال شبيبته لا يكاد ينام فقيل له في ذلك فقال : ذهن صاف و هم بعيد و نفس تتوق إلى معالي الأمور مع عيش كعيش الهمج الرعاع .

قيل : فما الذي يبرد غليلك ؟ قال : الظفر بالملك .

قيل : فاطلبه قال لا يطلب إلا بالأهوال .

قيل : فاركب الأهوال قال : العقل مانع .

قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلي جهلا و أحاول به خدرا لا ينال إلا بالجهل .

و أدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به فإن الخمول أخو العدم .

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا هو قد ضيع أهم المهمات و هو جانب الآخرة و انتصب في طلب الولايات فكم فتك و قتل ؟ حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا .

ثم لم يتنعم في ذكل غير ثمان سنين .

ثم اغتيل و نسى تدبير العقل فقتل و مضى إلى الآخرة على أقبح حال .

و كان المتنبي يقول : .

(و في الناس من يرضى بميسور عيشه ... و مركوبه رجلاه و الثوب جلده) .

(و لكن قلبا ـ بين جنبي ـ ماله ... مدى ينتهي بي في مراد أحده) .

(يرى جسمه يكسي شفوفا تربه ... فيختار أن يكسي دروعا تهده) .

فتأملت هذا الآخر فإذا نهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب .

و نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبا و ذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه لأني أحب نيل كل العلوم على إختلاف فنونها .

و أريد إستقصاء كل فن هذا أمر يعجز العمر عن بعضه .

فإن عرض لي ذو همة في فن بلغ منتهاه رأيته ناقصا في غيره فلا أعد همته تامة .

مثل المحدث فاته الفقه و الفقيه فاته علم الحديث فلا أرضى بنقصان من العلوم إلا حادثا عن نقص الهمة .

ثم أني أروم نهاية العمل بالعلم فأتوق إلى ورع بشر و زهادة معروف و هذا مع مطالعة التصانيف و إفادة الخلف و معاشرتهم بعيد .

ثم إني أروم الغنى عن الخلق و أستشرف الإفضال عليهم و الإشتغال بالعلم مانع من الكسب و قبول المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إني أتوق إلى طلب الأولاد كما أتوق إلى تحقيق التصاميم لبقى الخلفان نائبين عني بعد التلف و في طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات و في ذلك إمتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرق جمع الهمة .

و كذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم و المشارب فإنه متعود للترفه و اللطف و في قلة المال مانع و كل ذلك جمع بين أضداد .

فأين أنا و ما و صفته من حال من كانت غاية همته الدنيا ؟ و أنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب و لا أن يؤثر في علمي و لا في عملي .

فواقلقي من طلب قيام الليل و تحقيق الورع مع إعادة العلم و شغل القلب بالتصانيف و تحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .

و وا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس و تعليمهم .

و يا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة .

غير أني قد إستسلمت لتعذيبي و لعل تهذيبي في تعذيبي لأن علو الهمة تطلب المعالي المقربة إلى الحق D .

و ربما كان الحيرة في الطلب دليلا إلى المقصود و ها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة .

و إن بلغ همي مراده و إلا فنية المؤمن أبلغ من عمله